ويذكر ابو عبد الله المالكي في « رياض النفوس» اسماء تسعة من هؤلاء الفقهاء العشرة هم :

ابو الجهم عبد الرحمن بن نافع (1) .
ابو مسعود سعد بن مسعود التجيبي (2) .
ابو عبد الرحمن الحبلي (3) .
اسماعيل بن عبيد الانصاري المعروف بتاجر اللؤلؤ (4) .
موهب بن حي المعافري (5) .
حيان بن ابي جبلة القرشي (6) .
ابو تمامة بكر بن سوادة الجذامي (7) .
ابو سعيد جمثل بن عاهان بن عمير (8) .
اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر (9) .

واغلب الظن ان ما يقال من ان حسان بن النعمان « دون الدواوين (10) » ونشر العربية وجعلها لغة البلاد الرسمية لا يخلو من مبالغة ، واغلب الظن ان ما يقال كذلك من ان خطبة طارق بن زياد دليل على انتشار اللغة العربية بين البربر لا يخلو بدوره من مبالغة .

وربما كان تسرب المذهب الخارجي إلى المغرب في هذه الفترة (11) عاملا من اهم عوامل تاخر حركة التعريب عن ان تساير نشر الاسلام . والسبب ان امر الدين والمذهب غلب الخوارج وسيطر عليهم ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة ؛ فقد اغفلوا امرها ولم يكونوا ينظرون اليها سوى انها لغة الكتاب المقدس ولغة العلم لا حاجة تدعو اليها في الحياة العامة . ولعل هذا ما يفسر لنا سر بقاء كثير من المناطق التي انتشر فيها المذهب الخارجي على لهجتها البربرية لم تحاول ابدالها بلغة الدين الجديد .

وربما كان من الادلة على ان اللغة كانت لا تزال تتعثر ان العملة التي ضربت في نهاية القرن الاول للهجرة والتي كان بعضها يحمل اسم موسى بن نصير، كانت مكتوبة باللاتينية ، على الرغم من انها متاخرة عن حركة الاصلاح النقدي التي قام بها عبد الملك في المشرق (12) ، بل انه توجد سبع رسائل بعثت من رومة الى رجال الدين المسيحي في الاقاليم الافريقية مؤرخة في منتصف القرن العاشر الميلادي ومكتوبة باللاتينية ، مما يدل على ان الذين تلقوا تلك الرسائل كانوا يعرفون هذه اللغة (13) .

ومهما يكن ، فقد استطاع المغرب على عهد الادارسة ان يعيش في ظل نوع من الاستقرار ساعد على توطيد الاسلام ونشر اللغة في مناطق غير قليلة ؛ ونستطيع ان نعزو توسع حركة التعريب في هذا العهد الى خمسة عوامل :

1 ـ **حالة الاستقرار** التي سادت مناطق نفوذ الادارسة ، خاصة وان مؤسس دولتهم لم يدخل المغرب غازيا وانما دخله لاجئا ، وخاصة كذلك ان البربر سعوا اليه وولوه امرهم وبايعوه عن رضى وطواعية .

2 ـ **عروبة الادارسة** .

3 ـ **انشاء جامع القرويين** الذي كان له دور كبير في النهوض باللغة العربية والفكر الاسلامي في المغرب . وربما كان ذلك الدور ضعيفا في هذه الفترة ولم يقو الا في الفترات التالية ، ومع ذلك لا نريد ان ننكره حتى في مراحله الاولى ، خاصة ونحن نعرف ان المساجد جميعها وفي كل البلاد الاسلامية كانت تعتبر مدارس علم الى جانب انها مراكز عبادة . لذلك لا ينبغي ـ ونحن نشير الى هذا العامل ـ ان نغفل اثر الجوامع الاخرى ، وخاصة في سبتة التي ظلت تحمل مشعل الثقافة فترة غير قصيرة .

---

1) ص : 72 (2) ص : 66 ـ 67 (3) ص : 64 (4) ص : 69 ـ 72 (5) ص : 73
6) ص : 73 (7) ص : 74 (8) ص: 75 (9) ص: 75 . (10) البيان المغرب ص:29

11) ما كادت حركة الفتح تبدأ في المغرب حتى بدأت فئات الخوارج المنهزمة في المشرق تفد عليه وخاصة منها الاباضية والصفرية تحاول الترويج لمذهبها الذي وافق طبيعة البربر الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم سواء كانت عنصرية او دينية .

12) انظر مقالا حول تعريب الشمال الافريقي لوليام مارسي W. Marçais « Annales de l'Institut d'Etudes Orientales ». Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, T. 4, 1938, p. 8.

13) المصدر السابق ، ومن اهم ما تفيده هذه الرسائل انه كان يوجد سنة 1050 م خمسة قساوسة وانه لم يبق منهم سنة 1076 الا ثلاثة .

4 ـ خروج المغاربة في رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى بلادهم وقد صقلت السنتهم وزودوا بأفكار وعلوم جديدة لم يكن لهم بها عهد من قبل ، نذكر منهم :

ا ـ دراس بن اسماعيل الفاسي ، رحل الى المشرق والقيروان والاندلس ، دارسا ومدرسا ، وعاد الى فاس حيث توفي سنة 357 .

ب ـ ابا جيدة بن احمد اليزناسني الفاسي ، رحل الى المشرق وكان عالما بالفقه المالكي والشافعي، وهو صاحب كتاب « الفتوى » الذي الف في الوثائق على المذهب الشافعي ، توفي بفاس سنة 365 .

ج ـ عبد الرحيم بن احمد الكتامي السبتي المعروف بابن العجوز ، رحل الى الاندلس والقيروان، وكان من فقهاء المالكية ، توفي سنة 413 .

5 ـ كثرة الوفود العربية التي قصدت فاسا في هذا العهد ، قادمة اليها من الاندلس ، والقيروان . اما القيروانيون « وكانوا ثلاثمائة اهل بيت (1) » فقد وفدوا حوالي سنة 189 واقاموا في العدوة اليسرى ، وعمروها حتى عرفت بعدوة القرويين . واما الاندلسيون « وكانوا جما غفيرا يقال اربعة آلاف اهل بيت (2) » فنزلوا بالعدوة اليمنى وعمروها حتى اصبحت تسمى عدوة الاندلس . وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التي قامت على عهد الحكم بن هشام سنة 206 .

ويعرض ابن ابي زرع اسماء بعض القبائل والاشخاص الوافدين فيقول : « وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضي الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس في نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومدحج وبني يحصب والصدف وغيرهم ، فسر ادريس بوفادتهم واجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر فاعتز بهم لانه كان فريدا بين البربر ليس معه عربي فاستوزر عمير بن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وساداتها ولابيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والاندلس ومشاهد في غزو الروم كثيرة ، واستقضى منهم عامر ابن محمد بن سعيد القيسي من تيس عيلان ، وكان رجلا صالحا ورعا فقيها سمع من مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا ثم خرج الى الاندلس برسم الجهاد ثم جاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب ، ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الافاق فكثر الناس وضاقت بهم مدينة وليلي (3) » .

ولعلنا نستطيع ان نضيف الى هذه العوامل اربعة عوامل اخرى لا شك انها ساعدت على التعريب:

1 ـ **قرب اللهجة البربرية** ـ وقد تاثرت بالفنيقية ـ من اللغة العربية .

2 ـ **عدم مقاومة اللهجة البربرية** للغة العربية الا في المناطق الداخلية النائية ، اما في المدن والسواحل والمراكز الهامة فقد كان السكان لا يرون باسا في تعلم اللغة الجديدة طالما انها لغة الفاتحين ، فقد الفوا اتخاذ لغة الفاتح ومزجها بلغتهم ، اذ ليس من شان هذه الطبقة من السكان ـ وهي طبقة لها مصالح ـ ان تقاوم بل انها تهادن وتداهن وتتملق لتبلغ اغراضها وتحقق مصالحها . ومن هنا كانت هذه الطبقة اسرع من غيرها الى تعلم اللغة العربية .

ولعل مما يعطي اهمية لهذا العامل ان اللغة لا توجد في الواقع ولا تمارس ولا تنطلق الا في المدن والمراكز المتجمعة حيث يتحرك الناس ويتحدثون ، على عكس البوادي حيث يغلب الصمت على الفلاحين الذين يقضون الساعات الطويلة في الحقول متباعدين ساكتين .

3 ـ **تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم** واعجابهم بلغته واعجازه .

4 ـ **تهجير افواج من المغاربة** في شكل سبي الى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية فقد « قال الليث بن سعد : لما قدم موسى بن نصير الى افريقية قبل فتحه الاندلس ومعه جماعة من الناس اخرج ابنا له يسمى عبد الله الى بعض نواحيها فاتاه بمائة الف راس ثم وجه ابنا له آخر يسمى مروان الى ناحية اخرى فاتاه بمائة الف راس ، ثم توجه بنفسه الى ناحية اخرى فاتى بمائة الف راس، فبلغ الخمس يومئذ ستين الف راس . قال الليث فلم

---

1) الاستقصا ج 1 ص 73 .
2) المصدر السابق .
3) « الانيس المطرب القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لابي عبد الله محمد بن عبد الحليم المعروف بابن ابي زرع : مطبوع على الحجر بفاس دون تاريخ . صفحة (14) .

يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام . قال ابو شيبة الصدفي : قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس الاقصى وهو يجر الدنيا جرا بالسبي ، فلما قدم رسوله على موسى خرج معه وجوه الناس تتلقاه ، فلما التقيا قال مروان بن موسى : مروا لكل من يلقاني مع ابي بوصيفة وصيفة ، فلما امر بذلك سمع موسى للناس ضوضاة وصياحا ورأى لهم حركة فقال : ما هذا ؟ قالوا : مروان ابنك امر الناس بوصيفة وصيفة ، قال موسى : مروا لهم من عندي بوصيف وصيف . فانصرف الناس كلهم ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة (1) » .

وليس من شك في أن المغرب ـ لهذه العوامل مجتمعة وخاصة قدوم الاندلسيين في هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم ـ قطع مرحلة في التعريب لا يستهان بها ، كان من المنتظر ان تعقبها مراحل اخرى لولا انه تعرض في اواخر ايام الادارسة وبعدها لاضطراب شديد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين .

وكان محتما ان يتاثر سير التعريب بهذا الاضطراب ، خاصة وانه كانت لا تزال للبربر قوة ومنعة ومراكز لم تخضع بعد للاسلام . ومن غريب الامر أن تكون العوامل التي ساعدت ـ وكان من الممكن ان تساعد اكثر ـ على نشر اللغة العربية هي نفسها العوامل التي خلقت هذا الاضطراب واضرمت ناره . فقد بدا العرب ـ بعد ان عزوا وكثر عددهم ـ يستبدون بالامور ، ويوزعون بينهم المناصب واخذتهم النخوة العربية القبلية ، فكان ان شق المغاربة لهم عصا الطاعة ، وكان ان دخلت البلاد في عهود مظلمة من الفوضى نتج عنها ان تاخر امر اللغة وامر الدين كذلك.

وبعد قرون من الاضطراب والخمول ، أتيح للمغرب ان يعرف على عهد المرابطين حياة مستقرة لم تلبث ان خلقت نهضة شاملة اثرت في مختلف مجالات الحياة وخاصة في مجالي اللغة العربية والثقافة الاسلامية . واظننا نستطيع ان نعزو هذه النهضة التي شملت التعريب الى عوامل اهمها :

1 ـ **قوة الدولة** في مجالات الدين والسياسة والاقتصاد وما نتج من هذه القوة من استقرار بعث الطمانينة في نفوس المغاربة وثبت العقيدة في قلوبهم واتاح لهم فرص التعلم والدرس .

2 ـ **الوحدة مع الاندلس** وما حملت الى المغرب من روافد في جميع ميادين العلم والحياة فتحت للمغرب آفاقا حضارية وثقافية ؛ فقد اقبلت وفود العلماء والفقهاء والادباء من الاندلس الى المغرب في تدفق لم يكن له مثيل ، ووفد على ابن تاشفين « من كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ... من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار (2) » . وكذلك فعل ابنه علي ؛ فلم « يزل .. من اول امارته يستدعي اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك (3) » .

3 ـ **انشاء المدارس والرباطات** في مختلف المراكز بقصد تثبيت الوعي الديني والاصلاح الاجتماعي ، وبقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة . واهم هذه المعاهد كلها جامعة ابن يوسف التي اسسها علي بن يوسف بن تاشفين في مدينة مراكش .

4 ـ **عناية المرابطين بالثقافة** ؛ فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجاله في كثير من الصدق والتفاني والاخلاص . ولا عجب فالدولة قامت على اساس من العلم والاصلاح . واذا كان يوسف بن تاشفين قليل المعرفة باللغة والثقافة العربيتين ؛ فانه كان ـ باجماع المؤرخين ـ محبا للعلم مقربا لاهله ، ونقول قليل المعرفة ولا نقول جاهلا ـ كما يحلو لبعض الباحثين ان يصفوه ـ لانه لا شك نال من هذه المعرفة قسطا ابان دعوة ابن ياسين ومرابطته معه .

ومع ذلك فالباحث في كتب الطبقات سواء منها الاندلسية او المغربية لا يلبث ان يكشف النقاب عن اسماء كثير من امراء الدولة وكبرائها الذين كانت لهم عناية خاصة بالعلم امثال :

---

1) ضميمة في بحث الدكتور محمود مكي : Egipto y la historiegrafia arabico-española صفحة 224 (مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ـ العدد الخامس سنة 1957 ـ عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة) .

2) المعجب لعبد الواحد المراكشي تحقيق العلمي والعريان . طبعة القاهرة . صفحة 163 ـ 164 .

3) المصدر السابق صفحة : 173 .

زاوي بن مناد بن عطية الله بن منصور الصنهاجي المشهوز بابن تقسوط (1) .

خلوف بن خلف الله الصنهاجي (2) .

عمر بن امام بن المعتز الصنهاجي الملقب بالفقيه القائد (3) .

الامير المنصور محمد بن انحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني (4) .

الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تعيشت (5) .

ابو بكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلويت (6) .

ولعل حركة التعريب سارت بعيدا على عهد الموحدين حيث نشط نظم مسائل اللغة العربية ، وحفظ متونها . وازدهرت دراستها ودراسة العلوم اللسانية المتصلة بها ؛ وشاعت في لغة التخاطب بين مختلف طبقات الشعب لدرجة ان من يتتبع المقابلات التي اوردها ابن هشام في كتاب « لحن العامة » بين الكلمات العربية والكلمات المغربية العامية لا يجد الفروق كامنة الا في المعنى انجديد الذي اكتسبه اللفظ العربي من جراء انتقاله من بيئة الى بيئة اخرى مغايرة ومختلفة .

ومع ذلك فقد لجا الموحدون الى البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير والتاثير عليها ؛ فالمهدي يدرس بالبربرية ويؤلف بها كتبه في المذهب ويامر بالنداء للصلاة بها على حد اتهام المامون له (7) ، وعبد المومن يكتب لولاته بان « يؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي ويتكلمون به ان يقراوا التوحيد بذلك اللسان (8) » و « كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الا من يحفظ التوحيد باللسان البربري (9) » . ولكنا نرى ان مجال البربرية كان محدودا لا يتعدى الدعوة الدينية ، وان العربية لانتشارها كانت قد غدت اداة الدولة في جميع المصالح والمرافق .

ونستطيع ان نعزو هذا الانتشار الى العوامل الآتية :

1 ـ هجرات بني هلال وبني سليم للمغرب ، وكان قد استقدمهم المنصور (10) بعد ان قدموا الطاعة اثر انتصاره على حليفهم ابن غانية . وكان لهذه الهجرات اثر كبير جعل ابن خلدون يرى ان « العرب

---

1) التكملة لكتاب الصلة لمحمد بن الابار القضاعي ج 1 صفحة 89 طبعة كودبرا .
2) الجذوة لابن القاضي صفحة 115 طبعة حجرية.
3) التشوف الى رجال التصوف ليوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات تحقيق ادولف فور معهد الابحاث العليا المغربية سنة 1958 صفحة 198 .
4) التكملة ج 1 صفحة 193 .
5) المصدر السابق ج 2 صفحة 616 ووفيات الاعيان ج 2 صفحة 488 .
6) مقدمة ابن خلدون صفحة 519 ـ 520 .
7) الاستقصا ج 2 صفحة 212 .
8) رسائل موحدية صفحة 39 (نشر بروفنسال).
9) القرطاس لابن ابي زرع ، صفحة 46 .
10) انظر تفاصيل اخبار هاتين القبيلتين في الاستقصا ج 2 من صفحة 145 الى 158 ، والقرطاس صفحة 154 ، وتاريخ ابن خلدون ج 6 صفحة 12 . ويبدو ان استدعاء العرب واستقدامهم للمغرب بدا على عهد عبد المومن (انظر المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 172 ـ 173 ، تحقيق عبد الهادي التازي) وعلى عهد يوسف بعده (المصدر السابق ص 412 ـ 413 ـ 414 ـ 415) . ويقول ابن صاحب الصلاة ان يوسف امر في مراكش « بدخول اشياخ العرب والوفود للمبايعة واخذ العهد عليهم في ذلك فدخلوا ... وتمت بيعتهم » . ص (433) وكان قد امر « ... بتمييز العرب المذكورين وان يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر داخل حضرة مراكش ... فابتداوا بالدخول عليه ... على ترتيب توحيدهم اولا في قبائلهم السابقة لهذا الامر العزيز وعشائرهم فكان الذي ابتدا اول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم في التوحيد وامروا ان يدخلوا في كل يوم بعدد معلوم من القبيل المامور له فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوما يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر ثم يرجعون بطائفة اخرى من بعد صلاة الظهر الى آخر النهار على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر » (صفحة 434 ـ 435) .

لم يكن المغرب لهم في الايام السابقة بوطن وانما انتقل اليه في اواسط المائة الخامسة افاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك فكانت اخبارهم من اخبارها . . . واما آخر مواطن العرب فكانت برقة (1)» ومثل هذا يراه ابو القاسم الزياني حيث يقول انه « لم يكن بالمغرب كله احد من قبائل العرب الى ان جرهم المنصور الموحدي بمكيدة الجهاد (2) » .

2 ـ **وفود جماعة من غز مصر (3)** . وهم طائفة من الموالي الرائط الاصل حالفوا بني هلال وبني سليم في انضمامهم لثورة ابن غانية .

3 ـ **وفود جماعة من عرب بني معقل** كانوا بدورهم حلفاء لبني هلال (4) .

4 ـ **زيادة توافد الاندلسيين على المغرب بعد** ان تمغربت الاندلس .

كل هذه العوامل كان لها اكبر الاثر في انتشار اللغة العربية على نطاق واسع شمل الحواضر والبوادي والجبال والسهول حيث عاش الوافدون مع البربر حياة واحدة جعلتهم يتجانسون معهم ويتبادلون اساليب العيش والاعراف . مما زاد في تغلغل العربية وتمكنها من الالسنة لدرجة اصبح البربر كلهم على حد قول الفريد بيل يتقنون اللغة العربية في جبال الاطلس (5) وغدوا ـ كما يقول كوتيي ـ يستنكرون الاصل البربري ويرفضون الانتساب اليه ولا يكتفون باستعمال اللغة العربية فحسب بل يؤكدون انهم عرب وانه لا تجري في عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية (6) . وهو راي يؤكده ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية من ان البربر « تغيروا عظيما لاختلاطهم بالعرب حتى ليستحيل تمييزهم في اغلب الاحيان (7) » .

---

1 ، ج 6 ص 4 من تاريخ ابن خلدون .

2 ، الترجمانة الكبرى في اخبار المعمور برا وبحرا صفحة 69 نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي ، وزارة الشباب المغرب سنة 1967 ، . وقد علق الناشر على هذا الكلام برأي غريب قال فيه : « يلاحظ ان المؤلف لم يصل منه الى ان قبائل بني سليم وبني هلال ورياح وصباح وبني معقل وهي قبائل قدمت منذ الفتح العربي الاول من صعيد مصر الى عموم المغرب توجد خصوصا بالجنوب » .

3 ، انظر المعجب صفحة 288 .

4 ، انظر الاستقصا ج 2 من صفحة 159 حتى 162.

5 ، A. Bel. La religion musulmane en Berbérie (établissement et développement de l'Islam en Berbérie), p. 204.

6 ، E. F. Gautier : Les siècles obscurs du Maghreb. p. 410.

7 ، الترجمة العربية مادة : بربر .